عشائر البدو الرحل وواجبنا نحوها

للدكتور خالد بك الخطيب

«ان البحث الذى نقدمه لقرائنا فى هـذه الصفحات ، لمن أمتع البحوث وأنفعها للشرقيين عامة ، والعرب خاصة، وقد ألقاه الدكتور خالد بك الخطيب ، أحـد كبار المجاهدين السوريين محاضرة فى مدرسة التجهيز بمدينة عمان (شرق الأردن) وتفضل فخصنا بنشره فنشكره » المحرر

أسباب تدهور الأمة العربية :

إن الأسباب التى أدت الى تدهور الأمة العربية إلى هذا الدرك كثيرة، وجدير بالعرب أصحاب ذلك الماضى المجيد أن يعالجوا هذه الأسباب معالجة حكيمة توصل الى طرق فعالة تنقذ هذه الأمة من بلائها وتعيد إليها مجدها وعزتها الغابرين .

وقد خطر لى ـ يوم كلفتنى إدارة هذه المدرسة المحترمة بالقاء محاضرة فى ناديها ـ أن أعالج جهد المستطاع ناحية من نواحى هذا الضعف فى هذه الأمة المنكودة الحظ ، وسرعان ماتذكرت حالة هذه العشائر المبعثرة فى فيافى الصحراء وما آل إليه حالهم من الانحطاط ، وقد كانوا سند العروبة الأقوى . فعن لى أن أذكر الأمة — أو بالأحرى الطبقة المفكرة فى الأمة — بواجبها نحوهم بكلمة موجزة قد لا آتى بشىء جديد فيها، ولكنها على كل حال ستكون بمثابة التذكير، ولعل الذكرى تنفع المؤمنين . وإنى آمل أن تكون هذه الكلمة فاتحة البدء لطرق أدبائنا الأفذاذ، ورجال نهضتنا العاملين، هذا الموضوع الحيوى، ومعالجته بما يستحقه من العناية، وأن تكون وسيلة لحمل الحكومات العربية على التفكير فيه بصورة جدية، والقيام بما يجب القيام به نحو هذا الفريق من الأمة ، لاخراجه من هذه الحياة المظلمة الى حياة ينيرها العلم والتثقيف .

فان من أعظم أسباب انحطاط العرب شأناً وأشد هذه الأمراض فتكا ، هو بقاء هذه العشائر فى دجور قاتم من الجهل وهم يكونون ثلث مجموع هذه الأمة تقريباً . فاذا ما أتيح لك أن تزور هذه العشائر فى مضاربها ، وتدرس حياتها وتدقق حالتها: الاجتماعية والعلمية ، وتلاحظ درجة تقدمها الفكرى عن كثب ـ لرجعت وأنت تحمل بين طيات نفسك عاطفتين متضاربتين: عاطفة تحملك على التفاخر — وأنت عربى — بأخلاق هذه الأمة، ومزاياها الفطرية السامية

التى تناقلتها بالتوارث عن آبائها الأولين ، فتردد مترنماً ما قاله الأستاذ خليل بك مطران عن الفطرة العربية فى كتاب بعث به لصديق له إذ قال :

« جل فضل الله بما خص به الفطرة العربية من مزايا لم يودع منها سجايا الأمم الأخرى إلا قليلا ، وعاطفة شفقة توقد فى صدرك عوامل التألم لبقاء هذه المخلوقات البريئة فى معزل عن التطورات الاجتماعية الحديثة التى أصابت بقية الشعوب العربية المتحضرة منها بسهم وافر ، فغدوا كأنهم يعيشون فى عالم غير عالمنا ، وأصبحوا كما تراهم عضوا أشلا فى جموع هذه الأمة . ومن العار على الطبقة المفكرة من الأمة أن لا تشعر بواجبها نحو إصلاح هذا العضو المشلول ، وإنعاشه لتعيده إلى الحياة » .

ما المقصد من قولي « واجب » ؟

ألفنا أن نسمى واجباً ما نؤمر باجرائه ، حتى ولو كان ضد الواجب فى الحقيقة ، ولم نعتد الشعور بالواجبات إلا عن طريق القوة التى تفرض علينا فرائضها فرضاً ، وكثير من الواجبات الالزامية التى يتحتم علينا الشعور بها والقيام بأدائها قبل كل شيء آخر ، نهملها وربما لا تأتى لنا على بال باعتبار أنها واجب ، وهذا لعمرى نقص فى تكاملنا الأخلاقى يجب أن نسعى لتلافيه ، ويجب أن نعلم أنفسنا على الشعور بالواجب عن طريق الواجب لا عن طريق القوة .

وهذا الواجب الذى نحن بصدده ، والذى يتحتم على الأمة القيام به نحو هذه العشائر التائهة فى عالم الجهل المظلم ، إنما هو من نوع تلك الواجبات الشعبية الالزامية ، وليس هو بواجب حكومى ، بل ربما رأت الأمة وهى تقوم بأدائه كثيراً من الصعاب والعثرات تلقيها فى سبيلها الحكومات ، لأنه ما كل يوم تتفق مصلحة الأمة ومصلحة الحكومة ، خصوصاً فى بلاد قدر عليها أن تكون محكومة فى أمورها بأرادة غريبة عنها .

ويقسم واجبنا نحو هذه العشائر الى نوعين : واجب إنسانى محض ، وآخر وطنى له قيمته فى كياننا القومى . فان خشونة هذه المعيشة الجافة التى يقاسى مضضها هذا البدوى البائس ، وما إلى ذلك من عناء مستمر فى حياة متنقلة لا استقرار فيها ، وتعرض دائم لفتك الأمراض السارية وتحمل ويلات التناسل الناتجة عن جهل مطبق فى أصول التوليد الفنى ، وكثرة وفيات الأطفال الناتجة عن سوء التربية التى لا يعرفون لها معنى صحيحا ، وكثرة الاصابات بالعاهات التى كثيراً ما تترك تشويهاً فى أجسامهم — كل ذلك يحملك على الشفقة عليهم باعتبارك إنسانا يعطف على أخيه الانسان .

ترى المثرى الأمريكى يحمل نفسه عناء الأسفار الطويلة ليأتى من بلاده النائية الى بلادنا التى لا تربطه بها أية رابطة سوى الانسانية المجردة ، فيصرف المال بسخاء لتعليم يتيم ، أو تسهيل

إيصال المياه إلى قرية ، قد يتحمل أهلها شيئاً من العناء فى استنفائهم. ويعتقد أنه بذلك يخدم الانسانية، وأين هذا من ذاك الذى تكلفك به الانسانية نحو أخيك البدوى البائس ؟ ثم اليس الأقربون أولى بالمعروف ؟ !

هذا واجبنا نحوهم من الوجهة الانسانية ، أما من الوجهة الوطنية فلا أظن أننى بحاجة الى الأسهاب فيه ، لأنى اعتقد أن الجميع يقدرون ما لتقوية عناصر الأمة الاجتماعية من الأثر العظيم فى تقوية كيانها القومى .

فى كل يوم نقرأ أمثلة جديدة عن اهتمام الأمم الراقية فى تكثير معيار التناسل الصالح فيها، وتكثير عدد أبنائها لتعتز بقوتهم من عاديات الأيام، فى حين أننا نهمل ثلث مجموعنا بل ربما اكثر من الثلث فنتركه عضواً أشلا ، لا نفع للوطن منه، بل ربما كان أقرب الى الموت منه الى الحياة .

وما يدريك لو عنيت بتثقيف هذا المجموع المنعدم وربما كان لك منه الغوث المنتظر ، ربما خرج لك منه الأدمغة التى تعرف كيف السبيل الى الخلاص . إن المرحوم عبد المحسن السعدون مثل الوطنية المجسم، ورئيس وزارة العراق السابق، والمنتحر فى سبيل الذود عن كرامة امته - هو احد أفراد هذه العشائر الذين قدر لهم أن يردوا مناهل العلم، فكان علماً من أعلام الوطنية الخفاقة، وعاملا فيها من كبار العاملين .

وما يدريك لو ثقفت هذا المجموع المنعدم، ربما خرج للبشرية منه الأدمغة التى قد تؤدى لها أجل الخدم ... أليس البدوى هو الذى أوجد علم الفلك، ووضع له قواعده، وهو الذى ابتكر طريقة تعيين المواقيت، واخترع الساعة، واكتشف ملح البارود، وجلا اسرار الكيمياء، وجعلها علماً قائماً بذاته بعد ان كانت البشرية تجهل كل شىء عن الكيمياء ؟ ثم أليس البدوى هو الذى وضع أسس الصيدلة ، وفن التداوى ، وأصول الجراحة، وأول من اكتشف طريقة التداوى بالزئبق ، وأول من داوى الامراض العصبية بالكهرباء ، بواسطة نوع من السمك يقال له « الرعاد » ؟

هذا بعض ماقام به العربى من الخدم العلمية الكثيرة العدد لهذه البشرية يوم كانت غارقة فى ظلمات من الجهل، فمن الظلم اذن أن ندع هذه القابلية الممتازة تضيع اليوم بين البراءة فى التحقق من هوية السواد المقبل ومعرفته فيما اذا كان صديقاً أو عدواً ، وبين المهارة فى اقتفاء الأثر وانتخاب الارض الصالحة لرعى الابل وحلب الشاة وصنع السمن وجز الصوف .

فهذان الواجبان وحدهما كافيان لحملنا على ان ننظر نظرة جدية فى امر اخراج هذا المجموع الأشل من امتنا من هذه الحياة المظلمة الى حياة تنير ارجاءها الثقافة وحسن التربية الصحيحة .

مزايا العرب الفطرية :

ان العشائر الرحل هم العرب الحقيقيون، واليهم ترجع أصولنا، وليس من الانصاف أن لا نهتم لأمرهم ولا نثقفهم فنغذى فيهم تلك المزايا السامية ـ التى يصفها شاعر القطرين بذلك الوصف البليغ العادل ـ بغذاء العلم لنؤهلها لخدمة العرب والانسانية معاً .

لا يمكن تقدير مزايا الامة الفطرية حتى تقاس بمزايا امة اخرى، فيظهر اذ ذاك الفرق بيناً. واليك مثلا واحدا يؤكد لك بأنى لم أبالغ فيما أرويه عن الفطرة العربية وقابليتها للتثقيف والاصلاح.

منذ مائة سنة تقريباً انتشر داء الجدرى فى البلاد الانجليزية — وكانت لا تزال تلك البلاد فى عالم الفطرة الاولية — ولم يكن الشعب الانجليزى يعرف يومئذ شيئاً عن عملية التلقيح ضد الجدرى ، فلما أخذت الهيآت الموكول اليها امر التلقيح تشرع فى عمليته ، كانت تصادف من الشعب ممانعة هائلة ، وكثيراً ما كانت عرضة لفتكه وانتقامه ، وكانت تذهب المساعى العظيمة التى تبذل فى سبيل اقناعه بفائدة العمل سدى ، حتى أنهم كانوا يقولون على سبيل المثل فى التهويل : « التلقيح و بونابارت ألد أعداء انجلترا » .

قس هذا الحادث بما وقع بين عشائرنا منذ برهة قصيرة، وقدر بنفسك الفرق بين الفطرتين:

منذ بضعة اشهر تقريباً حدثت بعض الاصابات بداء التيفوس بين بعض عشائر الشرق العربى، فقامت دائرة الصحة هنا بواجب التلقيح ضد هذا الداء، وكانت تلقى من تلك العشائر — بعد أن أفهمتهم فائدة العمل — كل مساعدة على إتمام مهمتها . هذا المثل ـ على بساطته ـ يظهر لك الفرق ما بين: الفطرة العربية ، و بين فطرة امة تعد نفسها أعظم أمة على وجه الارض ، فليس من المروءة اذن اهمال امتنا وفيها اكمل فطرة ممتازة .

حياة البدوى وأخلاقه الحاضرة :

لا مجال للتبسط هنا فى شرح كل ناحية من نواحى الحياة عند هذه القبائل كل على حدة، فجميع نواحى الحياة عندهم ظلمات تتكاثف بعضها فوق بعض فهم يتخبطون فى طيات هذه الظلمات تخبط الأعمى الضائع ، وأجدر بى أن يكون كلامى عاماً .

ليس هناك إحصاء صحيح نقف منه على حقيقة عدد النفوس عندهم ، ولكننا نستطيع القول على وجه التقريب، أنهم يشكلون ثلث مجموع الأمة العربية ، وأسماء هذه القبائل أمر يعرفه أكثر الناس فلا حاجة لذكره هنا .

أما أخلاقهم فمن المعلوم أن أخلاق المرء أى (مجموع طبائعه) تتطور بتطور بيئته، فقد تتكامل وتنمو نمواً حسناً ، وقد تضعف وتسوء . ولا ريب فى أن للغرائز الوراثية تأثيرها

القوى فى سوق طبائع المرء إلى ناحيتها ، ولكن من الثابت أن البيئة هى التى تسيطر على تكييف هذه الطبائع وتلبسها لباسها ، وعلى هذه القاعدة يجب أن لا نفاخر كثيراً بأخلاق العرب الحاضرة المفاخرة التى ترتاح اليها النفوس . هذا إذا أردنا أن لا نخدع أنفسنا ، وإذا كان مبدؤنا تقرير الحقيقة والاعتراف بها . العرب أمة مجيدة منذ البداء وأخلاقها الفطرية أخلاق طيبة بلا ريب : فكرم العربى واجارته المستغيث ، وتفانيه فى سبيل حماية الدخيل ، وإبائه ووفائه ، وجرأته وشجاعته ، ونفوره من الأسر والاستعباد ، وتوق نفسه الى الحرية الكاملة كل ذلك أمر يقره الجميع ، ولقد كان صحيحاً تعليل العلماء الاجتماعيين ذلك الأمر اذ قالوا : إن هذه الصفات الأخلاقية العالية التى يتصف بها البدوى ، ناتجة عن نسق حياته فى البادية ، غير أن ذلك كان قبل هذا العصر الاقتصادى الشحيح ، وقبل ان تفسد دنانير المستعمرين تلك النفوس الطيبة النقية فتتلاعب بها كما يتلاعب الاطفال بالكرة . فانك اليوم - على الرغم من بقاء البعض منهم تلازمه غرائزه الاساسية الطيبة - ترى ان اكثرهم يتصفون بصفات لا تلبث متى تأكدتها ان تشمئز وتنفر منها نفورك من أقبح الخبائث . خذ لذلك مثلا : ان أى أجنبى يستطيع بقليل من المال ان يسخر الكثيرين من هؤلاء المساكين ويستخدمهم ضد الكثيرين من اخوانهم ومن هم من أبناء دينهم وجلدتهم ... ان أى أجنبى قادر ببذل القليل من الذهب الوهاج ان يجد بينهم العشرات بل المئات الذين يتطوعون عن طيبة خاطر للتجسس على امتهم وبلادهم ، مع أن التجسس احط عادة دنيئة عند العرب منذ القدم ، وهذه وحدها سيئة لعمرى كافية لأن تمحو فضل الف حسنة من الحسنات التى ذكرناها : كالكرم والوفاء والشجاعة مثلا . وليس من العدل أن أهمل القول هنا بأن للعرب المتحضرين أيضا حصة وافية من هذه المأساة . أقول ذلك والأسف يملأ جوانحى . فاذا ذهبت أيها العربى إلى بلاد أخرى وبذلت الوف الجنيهات لتستأجر من أهلها من يتجسس لك عليها لتعذر عليك ذلك ، ولكن الأجنبى فى بلادنا فى رهة قصيرة وببذل القليل من المال يستطيع استخدام الكثيرين للتجسس على بلادهم ، وهذا لعمرى من دواعى الألم المحض ؟

فخرى الخطيب

واجبك .. اهل أديته ؟ ..

إنك ستؤديه بلا ريب ...

أيها الشباب المثقف : !

ان مجلة « المعرفة » سبيلكم الى الثقافة الصحيحة ، وهى المجلة المصرية التى يضطلع بأعبائها الشاقة أحد مواطنيكم ، فليكن تعضيدكم إياه .. مشجعاً له ولغيره على إحياء القومية المصرية ..

هذا واجبكم فأدوه ..